الفصل الأول

خصائص التفكير المنطقي في القرآن والسُّنة

١ - السير وفق منهج محدد.

٢ - الدعوة إلى النظر العقلي، والبحث في الظواهر الكونية.

٣- تقدير قيمة العلم والعلماء، والاستعانة بأهل العلم والخبرة للوصول إلى الحقائق.

٤ - حرية الفكر وحرية العقيدة، وعدم التعصب ونبذ العنصرية.

٥- الدعوة للتخلص من الخرافات والأفكار المتوارثة والانفلات من القديم.

٦- تنحية الذات، وطرح الهوى وإقصاء الخبرة الذاتية، والالتزام بالموضعية.

٧- البحث عن الحقيقة الواضحة المتميزة، وإبطال الباطل وإحقاق الحق.

٨- اليقظة العقلية وعدم الغفلة.

٩- التسليم بوجود قوانين كونية، مع عدم الربط الحتمي الضروري بين الأسباب والمسببات.

١٠- الاعتماد على الحجج المنطقية والبراهين العقلية والمشاهدة الحسية.

١١- الدعوة إلى الشمول والتكامل.

obeikan.com

١٢- تحريم الاشتغال بالسحر والكهانة.

١٣- الصبر والمثابرة، وعدم التسرع في الوصول إلى الحقيقة.

١٤- الجدل والمحاورة بالحسنى، والدعوة إلى الحق بالموعظة الحسنة.

١٥- الالتزام بالأمانة في الأقوال والأفعال.

obeikan.com

الفصل الأول
خصائص التفكير المنطقي في القرآن والسُّنة

هناك اتجاهات وخصائص مميزة للتفكير العلمي السليم تتمثل في تحرر الفكر من التحيز والجمود، وعدم الاستسلام لآراء الآخرين والآراء المتوارثة دون تمحيص أو مراجعة، والتحقق من صحتها. كذلك من خصائص التفكير السليم اتساع الأفق العقلي وتفتح الذهن، وإعمال العقل، وعدم الغفلة، والتحرر من الخرافات والقيود والضغوط، والالتزام بالنزاهة والموضوعية، وعدم الميل مع الهوى، وتفهم الآراء الصادقة واحترامها حتى وإن تعارضت مع الآراء والأغراض الشخصية، والتمتع برحابة الصدر في البحث العلمي، والأمانة الدقة، وتقبل النقد والاستعداد لتعديل وتصويب الأفكار الخاطئة إذا ثبت خطؤها في ضوء ما يستجد من حقائق، وأن يعتقد الباحث أن الآراء التي توصل إليها ليست مطلقة ونهائية، وأنها تخضع للاختبار والتجريب والمراجعة المستمرة، وأنه يمكن تعديلها أو تغييرها.

وتجنب الغموض والمبالغة في دور الصدفة والدقة في جمع الأدلة والبراهين، وعدم التسرع في إصدار النتائج والأحكام دون الاستناد إلى الأدلة الكافية المقنعة، والبحث عن المسببات الحقيقية، وغيرها من السمات التي تضمن سلامة التفكير ودقته وصوابه، وتؤدي إلى نتائج صائبة أقرب ما تكون إلى

الحقيقة[١].

وقد توفرت في القرآن عوامل جعلته أصلح المناهج لقيادة البشرية وذلك لأنه:

أولًا: صادر عن الله لم يلحقه تحريف، وهذه حقيقة تاريخية. **وثانيًا:** لأنه مستوعبًا لكل قضايا الحياة. **وثالثًا:** لأنه لا يتعارض مع حقائق الكون، ولا ريب أن مَن يدقق النظر في آيات القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الشريفة يتكشف له أنهما يتضمنان سمات متعددة للتفكير المنطقي تهدي العقل إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ومن أهم هذه السمات أو الخصائص ما يلي:

١ـ السير وفق منهج محدد وخطة واضحة:

يجب توضيح الهدف المطلوب والوسيلة المتبعة لبلوغ الهدف والنتيجة المترتبة على الأخذ به. والمنهج بوجه عام هو وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة، أو خطة منظمة لعدة عمليات ذهنية أو حسية بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها[٢].

---

(١) انظر: د/ أحمد سليمان عودة، د/فهمي فتحي مكاوي: «أساسيات البحث العلمي في التربية والعلوم الإنسانية» مكتبة المنار، جامعة اليرموك، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص٢٥ وما بعدها. وانظر أيضًا: «مناهج البحث في التربية وعلم النفس» تأليف «ديولوب فان» ترجمة عن الإنجليزية د/محمد نبيل نوفل، د/سليمان الخضري، د/طلعت منصور غبريال، مراجعة د/سيد أحمد عثمان، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٩م.

(٢) «المعجم الفلسفي» مجمع اللغة العربية، تصدير الدكتور/ إبراهيم مدكور ص١٩٥.

وهذا بعينه ما نجده في الإسلام؛ فإن الله سبحانه وتعالى وضع للإنسان منهجًا واضحًا متميزًا لا لبس فيه ولا غموض، محدد الغايات والوسائل والنتائج حتى يكون الناس على بصيرة من أمرهم، وعلى هدى في سعيهم، وعلى علم بمصائرهم ونتائج أعمالهم، وصدق الله العظيم إذ قال تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾، وقال تعالى أيضًا: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون﴾، وقال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾.

الله سبحانه وتعالى رسم الطريق المستقيم للإنسان كل يسير فيه، وليكون له اتجاه موحد منسق حول غاية واحدة[1]، وأوضح له الغث والثمين من الأفعال والأقوال، وأبان له عن طريق الخير وطريق الشر، وأمره بما يفعل، ونهاه عما لا يريده سبحانه أن يفعله، فأرسل له الأنبياء والرسل لهدايته إلى سواء السبيل، ولتبليغه بمنهج السماء الذي إذا انتهجه في حياته نال سعادة الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

ولكن ما هو منهج الإسلام؟ للإجابة على هذا السؤال سنتناول عناصر المنهج وهي: الغاية، والوسيلة، والنتيجة المترتبة على الأخذ به.

أولًا: الغاية: وهي في الإسلام معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده وإفراد العبادة له. قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾، وقال تعالى:

---

(١) انظر: د/محمد البهي «المجتمع الحضاري وتحدياته من توجيه القرآن الكريم»، مكتبة وهبة، ص: ٢٨، ٢٩، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

﴿هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾، وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، وقال تعالى في الحديث القدسي: «**كنت كنزًا مخفيًّا فأحببتُ أن أُعرف فخلقت الخلق فبه عرفوني**»(١).

إن معرفة الله والإيمان بوحدانيته تعالى والتعبد له هي إذن الهدف المحدد الذي خلق من أجله الإنسان وسائر الخلق، وينبغي على الإنسان أن يعيش لتحقيق هذا الهدف السامي.

وقد يفهم من العبادة(٢) المعنى الضيق لهذا اللفظ، والذي يتبادر سريعًا إلى الذهن والمتمثل في القيام بأداء النوافل والواجبات الشرعية من صلاة وصوم وزكاة وحج وغيرها، ولا ريب أن تلك العبادات تمثل ركنًا هامًّا لا يستهان به من العبادة؛ غير أن الركن الآخر للعبادات لا يقل أهمية، وهو المتمثل في السلوك العملي للإنسان في تفاعله داخل المجتمع وفي علاقاته بالآخرين، وهو ما يطلق عليه في الفقه الإسلامي «المعاملات»، قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملًا صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾. فالعمل وبذل الجهد وزيادة الإنتاج بالطرق المشروعة عبادة، «**فمَنْ بَاتَ كالًّا من عمل يده باتَ مغفورًا له**» كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) انظر: د/أبو الوفا التفتازاني «حكمة العبادات» مقالة بمجلة التصوف الإسلامي، العدد (٧٣) جمادى الأولى سنة ١٤٠٥هـ.

(٢) انظر: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية» جمع وترتيب/عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، ج١ ص٤، لمعرفة المزيد عن معنى العبادة.

إن طاعة واحترام الوالدين والعمل على راحتهما عبادة، وغض البصر عبادة، والتحلي بالصدق والصبر والوفاء بالعهد عبادة، والبعد عن الفواحش والمنكرات والبغي عبادة، ورعاية الأيتام والتكافل بهم والعطف عليهم عبادة، وإكرام الضيف عبادة، وصيانة الأعراض عبادة، والدفاع عن الوطن عبادة، وصيانة الأمانة عبادة، وحفظ أسرار الناس وأسرار الدولة عبادة، والرحمة بالضعيف ومساعدته عبادة، وقضاء حوائج الناس ومصالحهم في سهولة ويسر دون تعطيل لها عبادة، والنظافة درجة من درجات الإيمان؛ فمن يتطهر وينظف جسده وثوبه والمكان الذي يعيش فيه أو يتواجد فيه فهو متعبد، ومن يطهر سريرته وينقي قلبه من الحقد والحسد والكراهية للناس فهو متعبد، كذلك معاشرة الأزواج بالحسنى ومعاملتهم معاملة حسنة متبادلة بينهم عبادة، وعدم الاستسلام لشهوات النفس وأهوائها ومجاهدتها للتغلب على نزعات الشر وتزكية الخير فيها عبادة، وحب الجار واحترامه ومعاملته معاملة حسنة عبادة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على بصيرة عبادة، وحب الأهل والأقارب وتقوية صلة الرحم عبادة، وأداء ما يناط بالإنسان من أعمال وما يوكل إليه من مسئوليات على خير وجه دون حاجة إلى رقيب عبادة، وكف الأذى عبادة، وإماطة الأذى عن الطريق عبادة، ورد السلام عبادة، وتربية الأبناء تربية سليمة قوامها الأخلاق الفاضلة وحب الله وحب الوطن وحب العلم والعمل والإنتاج وتنشئتهم على طاعة الله والامتثال لأوامره عبادة، والرفق بالحيوان عبادة، والاهتمام بالزرع والنباتات عبادة، وإنشاء الدور لعلاج المرضى ودور العلم ودور رعاية الأحداث وكل عمل يعود بالنفع على الناس والمجتمع عبادة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**

فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعبة من الإيمان»[١]، وقال صلى الله عليه وسلم: **«الإيمان الصبر والسماحة، والإيمان عفيف عن المحارم عفيف عن المطامع، والإيمان والعمل أخوان شريكان في قرن لا يُقبل أحدهما إلا بصاحبه»**[٢]، وقال صلى الله عليه وسلم: **«أسلم المسلمين إسلامًا من سلم المسلمون من لسانه ويده»**[٣]، وقال صلى الله عليه وسلم: **«لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه»**[٤].

هذا الجانب من العبادات له أهمية عظمى في حياة الفرد والمجتمع، فطاعة الله في المعاملات هي في حقيقتها عبادات وما سلف ذكره أمثلة لأنواع العبادات وليس حصرًا لها، فالعبادة تشمل كل تصرف يتصرفه المرء في جميع سلوكياته التي لا تحصى، وإذا كانت هذه هي غاية المنهج في الإسلام فهي غاية سامية كريمة فيها خير الدنيا والآخرة، فما الوسيلة إلى تحقيقها؟

---

(١) ارجع إلى: علاء الدين علي المتقي: «كنز العمال في الأقوال والأفعال» ج١ ص٣٥، وانظر أيضًا: «شرح الكرماني» طبع المطبعة البهية ١٣٥٦هـ، ج١ ص١٦، «فتح الباري» طبع الأميرية ١٣٠١هـ، ج٦ ص٧، و«عمدة القارئ» للعيني، طبع الأستانة سنة ١٣٠٨هـ، ج١ ص٢١، القسطلاني، طبع الأميرية ١٣٠٥هـ، ج١ ص٥١.

(٢) انظر: علاء الدين علي المتقي بن هشام الهندي: «كنز العمال في الأقوال والأفعال» ج١ ص٣٦، وانظر: البخاري في التفسير والتعبير والإيمان، ومسلم في الإيمان، والنسائي في التفسير، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، ومسلم وأبو داود في السُّنَّة، والترمذي والنسائي في الإيمان.

(٤) «الكرماني»: ج١١ ص٨١، «فتح الباري» ج١ ص٤٨.

ثانيًا: رسم الله سبحانه وتعالى صراطًا مستقيمًا وطريقًا مبينًا لمن أراد أن ينهج نهج الإسلام، ويتمثل هذا الطريق في التشريعات السماوية في العبادات والمعاملات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**القرآن هو النور المبين والذكر الحكيم والصراط المستقيم**»(١)، فالمعاملات تنظم العلاقة بين البشر بعضه البعض. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا معاذ، إذا أردت عيش السعداء وميتة الشهداء والنجاة يوم الحشر والأمن يوم الخوف والنور يوم الظلمة والظل يوم الحرور والري يوم العطش والوزن يوم الخفة والهوى يوم الضلال -فادرس القرآن؛ فإنه ذكر الرحمن، وحرز من الشيطان، ورجحان في الميزان**»(٢). وجعل الله الحياة الدنيا فرصة للتعبد، وبعث سبحانه الأنبياء والرسل لهداية الناس إلى الطريق المستقيم، وليبلغوا منهج السماء لمن أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلًا. وكانت رسالة الإسلام خاتم الرسالات السماوية وأكمل التشريعات للبشرية كافة؛ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾.

ثالثًا: وعد الله عباده الطائعين المؤمنين العابدين الذين التزموا بالسير على الدرب، وركبوا سفينة النجاة، وعدهم بالجنة والنعيم المقيم والسعادة الأبدية،

---

(١) علاء الدين علي المتقي بن حسام الهندي: «كنز العمال في الأقوال والأفعال» ج١ ص٥٤٤، «الكرماني» ج١٩ ص٦، «فتح الباري» ج٩ ص٨، «عمدة القارئ» ج٩ ص٢٨٩، «القسطلاني» ج٧ ص٤٠٥.

(٢) علاء الدين علي المتقي بن حسام الهندي: «كنز العمال» ج١ ص٥٤٤، و«الكرماني» ج١٩ ص٨، «فتح الباري» ج٩ ص١٤، «عمدة القارئ» ج٩ ص٣٠٥.

وتوعد عباده الكافرين والعاصين الذين لا يسيرون على الصراط المستقيم ولا يمتثلوا لأوامر الله، ولا يهتدون بهديه توعدهم بالنار. وكان الوعد والوعيد واضحًا لا لبس فيه؛ قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحًا فلأنفسهم يمهدون ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين﴾، وقال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا بما كانوا يعملون﴾.

ومن فضل الله وكرمه على عباده جعل من يعمل عملًا صالحًا له عشر حسنات، وتتضاعف إلى سبعمائة ضعف؛ وأما من عمل عملًا سيئًا فله سيئة واحدة؛ قال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إذا أسلم العبد فحسن إسلامه يكفِّر الله عنه كل سيئة كان زلفها، وكان بعد ذلك القصاص، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلى أن يتجاوز الله عنها»**[1]، وقال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفًا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين﴾، وقال تعالى: ﴿اليوم نجزي بما كنتم تعملون وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين﴾، وقال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة

---

(١) علاء الدين علي المتقي: «كنز العمال» ج١ ص٩٦، وانظر: «شرح الكرماني» ج٧ ص٢٠٠، «فتح الباري» ج٣ ص٢٣٨، «عمدة القارئ» للعيني ج٤ ص٣٣١.

يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون﴾، وقال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾.

وهكذا يرسم الله الطريق للمهتدين، ويضرب الأمثال للناس حتى لا يكون لأحد حجة يركن إليها أو عذر يبرر به عدم السعي في الطريق المستقيم واتباع المنهج القويم الذي ارتضاه الله لعباده، والذي ينتهي بهم إلى النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة، وهو يتلخص في طاعة الله ورسوله؛ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم﴾.

وقد حذر الله تعالى الناس من عاقبة الكفر والعصيان بمنتهى الوضوح في مواضع عديدة من آيات القرآن الكريم، وفي الكثير من الأحاديث النبوية؛ قال تعالى في هذا الصدد: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾. وقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: **«من مات لا يُشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار»**[1].

وقد أطلع الله نفوس بني آدم على وجوده وأشهدهم على وحدانيته منذ

(١) علاء الدين المتقي بن حسام الهندي: «كنز العمال» ج١ ص٧١.

خلقهم في البداية؛ قال تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾. وهذا ما يُعرف بميثاق الفطرة، وقال صلى الله عليه وسلم: «**كل مولود يولد على الفطرة** (أي مفطور على التوحيد) **فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجسانه**»(١).

إذن كل إنسان يعرف أن الله حق، وأنه واحد لا شريك له بالفطرة؛ فقد فطر الله معرفته في نفوس البشر؛ قال تعالى: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾. غير أن تلك النفوس لا تظل على هذا النقاء الفطري في معرفتها بالله، فعندما تحل في الأبدان فإن ذلك داعيًا لها للانغماس في حياة مادية استجابة لمتطلبات البدن مما يمثل حجابًا لها عن ذلك النور الفطري، وكلما كان الإنسان أقرب إلى الماديات وأكثر انشغالًا بها كلما كان أكثر بعدًا عن الله والعكس بالعكس. فبقدر انغماس الإنسان في الحسيات أو سموه إلى الروحانيات بقدر معرفته بربه، ولذلك أرسل الله الرسل ليذكروا بني آدم بمعرفة الله وإفراد التوحيد والعبادة له؛ قال تعالى: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولًا يتلو عليهم آياتنا﴾. وقال تعالى لخاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾. وكانت رسل الله تدعو إلى سبيل ربها بالحكمة والموعظة الحسنة.

---

(١) المرجع السابق: ج١ ص٢٦.

وقد أوضح الله تعالى أن اتباع الإنسان للمنهج القويم الذي رسمه لعباده لا يعود على الله بالنفع فإنه سبحانه غني عن العالمين، وإنما هو لصالح الإنسان ونفعه في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿فمن جاهد فإنما يجاهد لنفسه وإن الله غني عن العالمين والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾. كما أوضح سبحانه أنه يقبل التوبة من العاصين التائبين قبل موتهم، فيغفر الله لهم ذنوبهم؛ قال تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم﴾.

إنَّ المكذبين لكل ذلك سيتيقنون من صدقه وصدق قضية الإيمان في الآخرة، حينئذ سيعلمون أن الله واحد لا شريك له، وأن منهجه هو الحق، وأن الجنة حق والنار حق والحساب حق، بعد أن يروا بأنفسهم مشاهد يوم القيامة؛ يوم لا ينفع الندم ولا تُقبل التوبة ولا يُجدي الإيمان؛ قال تعالى: ﴿لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾، وقال تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«يا معاذ، هل تدري ما حق الله على العباد؟»**. قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. وهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا؟»**. قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«يدخلهم الجنة»**[1].

تبين لنا مما سبق أن الإسلام له منهج متكامل واضح؛ فالغاية سامية، والطريق مستقيم، والجزاء معلوم، والعقاب والثواب بقدر العمل، وبكرم ومغفرة من الله. وفي النهاية ما على الإنسان إلا أن يلوم نفسه يوم لا ينفع مال

(١) علاء الدين علي المتقي بن حسام الهندي: «كنز العمال» ج١ ص١٧٦.

ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وسيظل هذا المنهج متضمنًا في كتاب الله وسُنة رسوله الكريم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«أتاني جبريل فقال: يا محمد، إن الأمة مفتونة بعدك. قلت له: فما المخرج يا جبريل؟ قال: كتاب الله؛ فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم، وهو قول فصل ليس بالهزل. إن القرآن لا يليه من جبار فيعمل بغيره إلا قصمه الله، ولا يبتغي علمًا سواه إلا أضله الله، ولا يَخْلِق عن رده، وهو الذي لا تغنى عجائبه، من يقل به يصدُق، ومن يحكم به يعدل، ومن يعمل به يُؤجر، ومن يقسم به يقسط»**(١).

وقال صلى الله عليه وسلم: **«ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعًا ولا تتعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه؛ إنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتوحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق واعظ الله في قلب كل مسلم»**(٢).

وهكذا يتبين لنا بوضوح كيف أن الإسلام كتابًا وسُنة قد رسما المنهج القويم للإنسان ينتهجه في حياته، إذا التزم به الإنسان نال خير الدنيا والآخرة، يخاطب به الله تعالى أصحاب البصائر النافذة والعقول السليمة وأولي الألباب؛

---

(١) علاء الدين علي المتقي بن حسام الهندي: «كنز العمال» ج١ ص١٧٦، المتوفى سنة ٩٧٥هـ.

(٢) المرجع السابق: ج١ ص١٨٢.

قال تعالى: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب﴾.

لقد وعد الدين بالنجاة لمن يتبع هذا المنهج القويم، وجعل قدرًا من هذه النجاة يتحقق من خلال بعض الصعاب أو الآلام؛ ولكنه لم يجعل النجاة كلها من خلال الآلام والأحزان وحدها، فلم يكن الدين الناضج قط مجرد مذهب سطحي للتفاؤل الساذج، ولم يكن قط مدعاة للتشاؤم اليائس[1].

٢ـ الدعوة إلى النظر العقلي والبحث في الظواهر الكونية:

يدعو الإسلام إلى النظر العقلي، وإعمال الفكر، ودقة الملاحظة، والبحث في الظواهر الكونية من حولنا، وقد جاء بالقرآن الكريم العديد من الآيات التي يدعو فيها الحق سبحانه وتعالى كل إنسان إلى التأمل والتفكر والتدبر العقلي لآيات الكون؛ ومن أمثلة تلك الآيات قوله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾. وقد جاء في هذه الآيات دعوة صريحة -بل أمر من الله- لعباده بأن يكونوا على قدر من الوعي وقوة الملاحظة، وأن يعملوا عقولهم فيما حولهم من كائنات حية وغير حية على الأرض وفي السماء.

وقال تعالى: ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعًا

---

(١) د/ محمد كمال جعفر: «الدين والتدين» ص٥٢، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٨١م.

تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾، وقال تعالى: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفًا من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾، وقال تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾، وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾، وقال تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليمًا قديرًا﴾. وهذه الآية السالفة لا تدعو إلى تأمل آيات الكون؛ وإنما تدعو إلى تأمل أحوال من سبق من الأسلاف في العصور الغابرة، والاعتبار بما حدث لهم، والاستفادة من تجاربهم في الحياة، والتحذير من الوقوع في نفس الأخطاء التي وقعوا هم فيها. وقال تعالى: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾.

وهذه الآية إلى جانب أنها تلفت نظر الإنسان إلى الآيات التي خلقها الله في السماوات والأرض، فإنها تشير بصراحة ووضوح إلى أن السماوات تسكنها كائنات حية، وهي ما أسماها الله «دابة»، وهو اسم يطلق على الإنسان

والحيوان، كما أنها تنبه إلى إمكانية التقاء وجمع أهل السماوات بأهل الأرض، فالله قادر على أن يجمعهم معًا.

وقال تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النار﴾، وقال تعالى: ﴿ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير ألم تر أن الله يزجي سحابًا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركامًا فترى الودق يخرج من خلاله، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾، وقال تعالى: ﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم إن في ذلك لآية﴾، وقال تعالى: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء﴾، وقال تعالى: ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرًا إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

وخاطب الله رسوله الكريم طالبًا منه أن يحث الناس على النظر العقلي في قوله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾.

وإذا دقق الإنسان النظر في الأشياء من حوله في السماوات وما تعج به من أجرام سماوية سابحة كل في مداره الخاص بسرعة مقدرة ونظام لا يعيبه الخلل، والأرض وما عليها من جبال وبحار وأنهار ونباتات وكائنات حية وغير حية وظواهر كونية، فإنه يجد أن كل ذلك يجري على نحو دقيق وبقدر معلوم ونسب محدودة وكم مقدر، وأن جميع الكائنات ميسرة لما خلقت له، وأنها جميعًا خلقت

لحكمة وبحكمة لا دخل للصدفة والعشوائية فيها.

إن ذلك كله إن دل على شيء إنما يدل على عظمة الخالق وقدرته وخبرته وعلمه، والله تعالى سبحانه يلفت نظر الإنسان -وهو سيد الخليقة وخليفة الله في الأرض- إلى ضرورة الوقوف أمام كل ظاهرة حوله وكل كائن في متناول حسه، وكل جارية تجري على الأرض أو في السماء يقف أمامها مشاهدًا بعين بصيرة مدققة ومتأملة، ويدرسها دراسة متعمقة ليقف على حقائق صنع الله. وكلما تفرس الإنسان في ملاحظاته وأبحاثه ودقق في دراسة ظاهرة ما أو مخلوق ما، فإنه يقف على حقيقة هذه الظاهرة أو هذا المخلوق، ويدرك تفصيلات جزئية لا يعلمها إلا الباحث الدقيق، تؤكد له بما لا يدع مجالًا للشك أن ذلك صنع الخالق القادر القوي المتين الخبير البصير، وأن لا مجال للصدفة والعشوائية، ولذلك قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. ولماذا يخشى العلماءُ الله؟ لأنهم لشدة تعمقهم في دراسة الأشياء وبحثها دراسة متخصصة أتاحت لهم الوقوف على تفصيلات دقيقة تبهر عقولهم، ويشاهدون فيها حكمة الصنعة ودقتها وإحكامها كميًّا وكيفيًّا؛ فيحملهم علمهم هذا إلى التسليم بقدرة القادر وعظمته فيخشونه ويعرفون له سبحانه وتعالى قدره بعد أن عرفوا قدرته.

قال تعالى عن دقة صنعه للمخلوقات الأرضية الحية وغير الحية: ﴿وألقين فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾. ومن الآيات التي تدعو إلى النظر العقلي قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنًا ثم جعلنا الشمس عليه دليلًا ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿أولم يروا كيف يبدي الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير قل سيروا في

الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾، وقوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾. وهذه الآية الكريمة تحمل حقيقة كونية يريد الله سبحانه أن يلفت نظر الإنسان إليها، وهي أن أطراف الأرض أنقص من مركزها، فهي ليست كروية بشكل منتظم، وإنما ناقصة من أطرافها، فهي أقرب إلى الشكل البيضاوي منه إلى الكروي؛ لانبعاجها من طرفيها. وقوله تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركًا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾.

وهكذا يدعو الله تعالى عباده إلى النظر فيما حولهم من موجودات وظواهر وأحداث كونية متعددة ومختلفة، على أن يكون هذا النظر مصحوبًا بالتأمل العقلي والتفكر، فهي دعوة إلى النظر الحسي والعقلي في نفس الوقت؛ قال تعالى: ﴿قل هي يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾، وقال تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾. والله سبحانه وتعالى في هذه الآيات يحكم على من يرون بعيونهم تلك الموجودات من حولهم، وما على الأرض من حياة وظواهر طبيعية، وما في السماء من بنيان ونظام دون أن يثير هذا كله تفكيرهم ويوقظ عقولهم بأنهم عمي القلوب؛ أي ليس لهم بصيرة، فإن على قلوبهم غشاوة، فلا حجاب إلا في المحجوبين، فالحق ظاهر للعيان؛ يقول تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾. فالغافلون عن التفكير في ملكوت السماوات والأرض يشبههم الله بالحيوانات التي ترى

الأشياء وتسمع الأصوات ولا يثير هذا تفكيرهم ولا يستوقفها للتأمل والاستنتاج؛ بل هم أشر وأضل من الحيوانات؛ لأنهم يملكون العقول فلا حجة لهم؛ أمَّا الحيوانات فإنها لا تَعْقل.

وأمر الله الإنسان أن يتأمل نفسه إلى جانب تأمله ما حوله؛ فقال تعالى: ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم وما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾، ودعاهم أيضًا إلى تأمل كلامه تعالى متمثلًا في القرآن الكريم؛ فقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

تلك بعض الأمثلة للآيات القرآنية التي تحث على النظر العقلي، وليس حصرًا لها، ولا ريب أن قوة الملاحظة والوقوف على ما يحدث من حولنا والعكوف على فهمه وتأمله ودراسته واستخلاص النتائج منه يؤدي إلى اليقظة العقلية، وهي من أهم سمات التفكير العلمي السليم، كما أن تأمل وتفسير الطبيعة كمعرض للإبداع الإلهي والاستجابة لها كوسيلة لتنفيذ مضمون الحركة الإلهية العامة يقدم فرصًا للتمتع النفسي والروحي والحسي، إلى جانب الانتفاع العلمي عند الكشف عن القوانين المودعة في الكون[1]، والتي هي حقائق ثابتة يسعى الإنسان لاكتشافها، والحقيقة الكونية العلمية لا تصطدم مع

(١) ارجع إلى كتاب د/محمد كمال جعفر: «الدين والتدين» لمعرفة الأهداف التي يخدمها الدين فيما يتعلق بالأخلاق والشعور أو العطافة والعلم والمعرفة من ص: ٢٤-٣٢، مطابع الأهرام التجارية سنة ١٩٨١م.

الحقيقة الدينية التي وردت في القرآن[١]؛ لأن الله خالق الكون هو الذي أنزل القرآن ويعلم سر الكون، وإذا حدث خطأ إنما يكون مصدره إما عدم فهم الحقيقة الدينية التي وردت في القرآن فهمًا صحيحًا، أو يكون منشؤه الظن أن الحقيقة العلمية صادقة، وهي في الواقع غير ذلك، فقوانين العلم تتغير كلما يتقدم العلم ويتطور.

٣ـ تقدير قيمة العلم والعلماء:

يهتم الإسلام اهتمامًا عظيمًا بالعلم وأهله، وتلك سمة من أهم سمات الفكر السليم، فمعرفة قدر العلم والعلماء يخلق بيئة علمية صالحة لكل مفكر ومبدع ومخترع، والتاريخ الإسلامي يشهد على أن العرب بعد ظهور الإسلام قد اشتد اهتمامهم بالعلم وعرفوا للعلماء مكانتهم وشجعوهم على إجراء أبحاثهم ووفروا لهم الإمكانات اللازمة لذلك، فكان بلاط الخلفاء المسلمين على مر التاريخ الإسلامي يحتفي بأهل العلم وذويه، ويعرف قدرهم، ويقدم لهم كل عون، وقد تربى المسلمون على أن الحكمة ضالة المؤمن، وعلى أن يطلبوا العلم ولو في الصين؛ اقتداءً بتعاليم كتابهم وسُنَّة رسولهم صلى الله عليه وسلم.

ولا أدل على اهتمام المسلمين بطلب العلم وتشجيع انتشاره وتقدمه من أنهم ترجموا تراث الإنسانية العلمي والأدبي في شتى فروع المعرفة إلى اللغة العربية، فقد بدأت حركة الترجمة في العصر الأموي، ثم ازدهرت وقويت في

---

(١) انظر: محمد متولي الشعراوي: «هذا هو الإسلام» ج١ ص٢٦ وما بعدها، الطبعة الأولى، دار الحرية للطباعة والنشر سنة ١٩٨٥م.

العصر العباسي وخاصة في عهد الخليفة المأمون العباسي (١٩٨هـ-٢١٨هـ/٨١٣م-٨٣٣م) الذي أنشأ دارًا للترجمة سنة (٢١٧ه/٨٣٢م) جمع فيها المترجمين الذين عكفوا على ترجمة كتب اليونان من اليونانية إلى السريانية، ثم من السريانية إلى العربية[١]. ويذهب السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) إلى أن أول من عرَّب كتب اليونان «خالد بن يزيد بن معاوية» لما أولع بكتب الكيمياء، ثم كان اهتمام الخلفاء العباسيين بالترجمة فأغدقوا العطاء للمترجمين أمثال حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠هـ/٨٧٣م) وابنه إسحاق بن حنين (ت ٢٩٨هـ/٩١٠م) وثابت بن قرة (ت ٢٨٨هـ/٩٠١م) وقسطا بن لوقا البعلبكي (ت٣٠٠هـ/٩١٣م) وغيرهم[٢]. وكان الخلفاء المسلمون يدفعون ثمن الكتاب الواحد وزنه ذهبًا حتى يحصلوا عليه. كما كانوا يجزلون العطاء للمترجمين ليقفوا على تراث اليونان والفرس والهنود والمصريين وغيرهم، ولم يكن المسلمون مجرد نقلة في حركة الترجمة، وإنما حللوا كل هذه العلوم المترجمة وأضافوا إليها ونقحوها ونقدوها، وابتكروا الكثير بشهادة المستشرقين، وكان المسلمون في اهتمامهم بالعلم يهتدون بهدي القرآن الكريم الذي حث على طلب العلم وأبرز أهميته ومكانة العلماء وأثار انتباه العرب والمسلمين إلى الدور الخطير الذي يلعبه العلم والعلماء في حياة الأمم، كذلك اقتدوا بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي كان يحث المسلمين على طلب العلم وساهم

---

(١) انظر: H.A.R.Gibb: Studies on the Islamic civilization Oxford ١٩٦٣

(٢) جلال الدين السيوطي: «صون المنطق والكلام» تحقيق د/علي سامي النشار، ص٩. وانظر أيضًا: أواري: «علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب» ترجمة د/وهيب كامل.

obeikan.com

مساهمة فعالة في محو أميتهم، حينما كان يطلب إلى كل أسير يَعرف القراءة والكتابة أن يعلِّم عشرة أفراد من المسلمين الأميين.

والقرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة يحملان على طلب العلم وتقدير قيمته وتكريم أهله، ويتضح ذلك الاهتمام الإلهي بالعلم منذ أن خلق الله آدم أبا البشرية، وعلمه أسماء الموجودات؛ قال تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾[١]. ثم بعث سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل ليعلموا الناس على مر العصور وينيروا بصائرهم؛ قال تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾[٢]. وكانت أول سورة نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم تبدأ بكلمة «اقرأ»، قال تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

يقول «ابن كثير» في «تفسير القرآن العظيم»: «فأول شيء نزل من القرآن في هذه الآيات الكريمات المباركات ومن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه إلى ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى علم الإنسان ما لم يعلم فشرَّفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي

---

(١) يقول الطبري في «جامع البيان» تحقيق/محمود محمد شاكر أي علمه اسم كل شيء من الجبال والبغال والإبل والجن والوحي وغيرها، ص٤٦٥.

(٢) لمعرفة فضل العلم والعلماء في الإسلام من واقع الكتاب والسُّنَّة الشريفة، ارجع إلى: الغزالي: «مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب» ص: ٢٥١، ٢٥٢.

امتاز به أبو البشرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبيان ذهني، ولفظي، ورسمي»[١]. وفي السُّنَّة أن خير المسلمين من تعلم العلم وعلمه، وأن العلماء ورثة الأنبياء[٢].

كرم الله الإنسان بالعقل والعلم، وبهما فضَّله على سائر مخلوقاته وحمَّله الأمانة التي عرضها على السماوات والأرض والجبال، فأبينا أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان؛ قال تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا﴾.

فالإنسان تحمَّل الأمانة، وقال «العوضي» عن ابن عباس: «يعني بالأمانة الطاعة، عرضها عليهم (أي السماوات والأرض والجبال) قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطيقونها، فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت. فأخذها آدم فحملها»[٣]. وإن الله سبحانه يقرر أن الكثيرين من بني آدم عاجزين عن حمل الأمانة وإعمال العقل وتسخير العلم في طاعة الله ومرضاته، ولذلك قال تعالى عن الإنسان: ﴿إنه كان ظلومًا جهولًا﴾.

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٤ ص٢١٢.

(٢) الغزالي: «مكاشفة القلوب» ص: ٢٥١، ٢٥٢، طبعة سنة ١٩٨٨م، المكتبة التوفيقية.

(٣) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص٥٢٢.

obeikan.com

ويوضح الله تعالى للناس أنه قد أنعم عليهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويوقظهم من الجهل والغفلة، ويحثهم على طلب العلم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فقد كانوا قبل بعثته في جاهليةٍ جهلاء يسفهون العقول؛ فأصبحوا بعد الإسلام قوم يعتزون بالعلم ويحترمون أهله ويحرصون على اللحاق بركب الحضارة والمساهمة الجادة في بناء التراث العلمي العالمي، واستكمال ما بدأه السابقون في مجالات العلم المختلفة؛ قال تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾، وقال تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم﴾ فعلمه تعالى محيط بجميع الكائنات وحقائق الأمور؛ ما ظهر منها وما بطن، ولا يخفى عليه شيء، وهو سبحانه يعلم الإنسان ما لم يعلم، وقد ذوده بالحس والعقل، وأمره بطلب العلم وطلب الدليل والبرهان الحسي والعقلي، وفطره على حب الجدل والمناظرة، ويسره للمعرفة(١).

يتضح لنا من الآيات السالفة حرص الحق سبحانه وتعالى على أن يتعلم الإنسان؛ فكلفه بطلب العلم وإعمال العقل، وجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وجعل للعلم والعلماء منزلة رفيعة عنده، فهو سبحانه خير من يعرف قدر العلم وأهميته، فالعلم هو النور الذي يلقي بضوئه على الحقيقة

(١) انظر: سيد قطب «في ظلال القرآن» ص ٢٧٦٧، دار الشروق، ط١٣ سنة ١٩٨٧م، وانظر أيضًا: الشيخ محمد متولي الشعراوي: «معجزة القرآن» ج١٠ المطبعة التجارية سنة ١٩٦٠م.

فتنكشف للعيان وتظهر وتتضح دون لبس أو غموض. وقد ورد في القرآن الكريم آيات عديدة توضح قيمة العلم ومنزلة العلماء؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾، فلا يستوي العلماء مع غيرهم من عامة الناس؛ بل إن لهم مكانة خاصة عند الله؛ وذلك لأن العلماء قد تعمقوا في علومهم؛ فعرفوا الله ووقفوا على دقة صنعه وعظمة خلقه وتنسيقه سبحانه للمخلوقات أو الموجودات الجزئية التي هي موضوعات أبحاثهم، ولذلك فهم يشهدون أن لا إله إلا الله وحده المبدع الخالق العظيم المصور؛ قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس ولا يعقلها إلا العالمون﴾ فالعالمون هم أقدر الناس على معرفة عظمة الله.

والعلماء هم الذين يعرفون أن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق من ربهم؛ قال تعالى: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾. وتتضح مكانة العلم والعلماء عند الله من أنه سبحانه جعل شهادة العلماء تأتي في المنزلة بعد شهادته وشهادة الملائكة؛ قال تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم﴾. وفي هذا تكريم للعلماء ورفع لقدرهم؛ قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾.

وقد أمر الله الإنسان بالاستعانة بأهل العلم والخبرة للوقوف على الحقائق بحكم ما يتمتعون به من ذكاء وتدريب وتخصص دقيق وسعة علم وثقافة واسعة، ولأن العالم قد ألم وعرف موضوع علمه واستعان بكل ما يعينه على فهمه، وصار ذا خبرة ودراية به، وقال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾. وقد جاء في تفسير ابن كثير أن معنى «أهل الذِّكر» أي أهل العلم من

اليهود والنصارى وكل الطوائف[١].

ويحذر الله تعالى عباده من أن يقولوا ما لا يعلمون؛ فإن إطلاق الأحكام دون علم وتثبت من صحتها أمر خطير؛ قال تعالى: ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم﴾. وفي هذه الآيات الكريمة يعظم الله من خطر الأحكام التي يدلوا بها أصحابها عن جهلٍ، ويحذر من إطلاق الأحكام جزافًا دون علم، فذلك كما وصفه تعالى أمر ليس بالهين؛ وإنما هو أمير خطير، فالمفكر الذي يبغي الدقة والصدق لا يتفوه بما لا يعلم، وهذه سمة من أهم سمات التفكير السليم، وهى تحض على عدم التسرع في إصدار الأحكام دون التأكد من صحتها ودقتها.

والإسلامُ يدعو أيضًا إلى اتباع العلماء وذوي الحكمة حتى ولو كانوا أصغر سنًّا أو كانوا أبناءنا؛ قال تعالى: ﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطًا سويًّا﴾، وقال تعالى محذرًا من الاعتماد على التخمين والظن بدلًا من العلم اليقيني موضحًا أن الظنَّ لا يغني عن الحق شيئًا ويؤدي إلى الضلال؛ قال تعالى: ﴿ما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن إن الظن لا يغني عن الحق شيئًا﴾، وقال تعالى: ﴿ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾.

ويحذر الله أيضًا من الجدل عن جهل في غير الحق؛ قال تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولًا﴾.

---

(١) انظر: ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص١٦٩، نشر الدار المصرية اللبنانية.

ويقول صاحب الطحاوية: «مَن تكلم بغير علمٍ، فإنما اتبع هواه، وقد قال الله تعالى: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«اعملوا بكتاب الله، فما اشتبه عليكم فاسألوا أهل العلم يخبروكم»**[٢]. قال قتادة: «لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله، فإنه تعالى نهى عن القول بلا علم بل بالظن، فإن الظن أكذب الحديث كما جاء في الحديث الشريف: **«إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث»**، وفي سنن أبي داود: **«بأس مطية الرجل زعموا»** أي: بئس الزعم أو القول المشكوك في صحته، وقال صلى الله عليه وسلم: **«إنَّ أفرى الفرى يُري الرجل عينيه ما لم تريا»**[٣].

وقال تعالى لمن يفتري الكذب ويطلق الأحكام دون تثبت من صدقها وصحتها علميًّا: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن﴾، وقال تعالى: ﴿نبؤني بعلم إن كنتم صادقين﴾.

والعلم الذي يأمر به الله تعالى لا يقتصر على جزئية معينة في هذا الكون؛ وإنما المقصود جملة المعارف التي يمكن أن يحيط بها الإنسان من نظره ودراسته

---

(١) انظر: علي بن علي بن محمد أبي العز: «شرح الطحاوية في العقيدة السلفية» ص٢٥٢.

(٢) علاء الدين علي المتقي بن حسام: «كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال» ج١ ص١٩٠.

(٣) انظر: ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص٣٩.

لملكوت السماوات والأرض وما بينهما من مخلوقات حية وغير حية[١]. وقد طلب إلينا الرسول الكريم أن نطلب العلم ولو في الصين؛ أي أن نسافر لطلب العلم.

ويشير القرآن إلى أنَّ العلم لا يقول الكلمة الأخيرة رغم أهميته؛ فإنه متطور ومتغير، ويأتي كل يوم بجديد؛ لأن بحار المعرفة أوسع من أن يعبرها العلماء دفعة واحدة، إنما يكون العلم متطور من عصرٍ إلى عصرٍ، ويضيف علماء كل عصر حصيلة علومهم إلى ما آل إليهم من تراث السابقين عليهم ليسلموه إلى من سيلحق بهم من علماء، ليضيفوا بدورهم ما يتوصلون إليه بجهودهم وهلم جرة، وقد قال الله في ذلك: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾. وقال تعالى مصورًا عظم حجم المعرفة: ﴿ولو أنما في الأرض من شجر أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾، وقال تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا﴾، وقال تعالى: ﴿وقل رب زدني علمًا﴾. وهذا ما سنعود للحديث عنه عند تناولنا للضرورة أو الحتمية في القوانين العلمية، وقد أشار الله في آية الكرسي إلى أن الإنسان قد يتسع علمه فيتنبأ بالغيب في قوله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾. وهذا يعني أن علم الله بالغيب والمستقبل لا يحيط به الإنسان إلا بالقدر الذي يشاء الله له أن يعرفه، وهذا يدل على أنه في إمكان الإنسان معرفة المستقبل والاطلاع على الغيب في الحدود التي يسمح بها الله تعالى، وهذا متحقق فعلًا في قدرة الإنسان على التنبؤ بالعواصف والأمطار وحالة الجو خلال مدة محددة، والتنبؤ بكسوف الشمس وخسوف

(١) عباس العقاد: «التفكير فريضة إسلامية» ص٥٧.

القمر وغيرها من الظواهر التي أمكن للإنسان اعتمادا على الآلات والتقنية العلمية أن يصدق تنبؤه بها؛ قال تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾.

ويجب ألا يفوتنا أن الدين يخدم غرضًا علميًّا ومعرفيًّا؛ فقد أجاب الدين على أسئلة كثيرة حول النفس الإنسانية ونشأة الإنسان والعالم؛ يقول الدكتور/محمد كمال جعفر: «لقد حاول الدين أن يجيب عن أسئلة كثيرة طالما شغلت الإنسان وأقضت مضجعه، أسئلة من هذا النوع: من أنا؟ وما نفسي تلك التي أشعر بها؟ ما هذا العالم؟ ماذا يعني بالنسبة لي؟ لم وجدت؟ ولم أموت؟ وما هي صفات ذلك الذي يتجاوز حدود سيطرتي وسلطاني بل سيطرة بني جنسي؟ أيوجد قادر مدبر لهذا الكون؟»[1]. فالدين يتسع لمعارف عديدة خاصة بالحياة الدنيا والآخرة وبعالم الشهادة وعالم الغيب.

إن التطور الفكري المعاصر والتقدم العلمي الذي حققه الإنسان في مختلف المجالات يقتضي منا دورًا فعالًا للحاق به في العلوم والفنون والآداب والفلسفة، كما يقتضي أن نحي التراث الإسلامي ونبرز ما قدمه الإسلام للنهضة الفكرية والحضارية والعلمية للمسلمين الذين بلغ عندهم العلم قمة الازدهار خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين؛ فظهر فيهما أعلام الفكر العلمي والفلسفي في تاريخ الإسلام[2]. فعلى الباحثين في الفكر الإسلامي الاهتمام بإحياء التراث وتنقيحه. وقد استلهمت الحضارة الأوربية

(١) د/محمد كمال جعفر: «الدين والتدين» ص٣٠.

(٢) د/توفيق الطويل: «الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية» ص: ١١٤، ١١٥.

الحديثة العلم بمناهجه التجريبية من تلك الحضارة الإسلامية حينما ترجمت التراث العربي الإسلامي في العلوم والفلسفة والفن والأدب، وكان هذا في صقلية وهي تحت حكم العرب المسلمين في النصف الأخير من القرن الحادي عشر، وفي الأندلس في النصف الأول من القرن الثاني عشر، وفي أثناء الحروب الصليبية التي استمرت من القرن الحادي عشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر الميلادي؛ وأسفر ذلك عن نهضة علمية وحضارية في أوربا بعد طول ركود وجمود فكري.

٤ـ حرية الفكر وحرية العقيدة ونبذ التعصب والعنصرية:

يتسم الإسلام بالتمسك بحرية الفكر وحرية العقيدة والدعوة إلى الابتعاد عن التعصب والعنصرية والحرية السياسية والديمقراطية. وهذه من أهم خصائص التفكير السليم؛ فلا إكراه في الإسلام على الالتزام بدين معين، وحرية العقيدة مكفولة لكل إنسان[1]؛ قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾. وقال تعالى لرسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾، وقال تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾، وقال تعالى: ﴿إنما أنت نذير﴾، وقال تعالى: ﴿وما أنت

(١) يجدر الإشارة إلى أن هناك شرط أساسي لا بد لكل من يعتنق الإسلام أن يكون على علم به؛ وهو أن من ارتضى الإسلام دينًا ودخل فيه لا يحق له الارتداد عنه؛ وإلا طُبق عليه حد الردة، وهو القتل، وهذا كشرط أساسي يعرفه الجميع قبل اعتناقهم للإسلام، فإن قبل به فلا رجعة في قبوله، وهذا هو منهج الإسلام ورؤيته الواضحة. ومن هنا فعلى من يرتضي الإسلام دينًا عليه أن يسلم بهذا الشرط، ومن تاب بعد الارتداد تقبل منه التوبة.

عليهم بجبار﴾. هذه الآيات وغيرها دليل قاطع وبرهان ساطع على حرية العقيدة وحرية الفكر، فلا يصح في الإسلام أن يكره المرء على الإيمان أو الاعتقاد؛ بل هي حرية عقيدة كاملة[١]؛ قال تعالى: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾. وكل إنسان يعتنق ما يشاء بحرية تامة.

إن الإسلام قد أسس قواعد الحرية عندما أقرَّ حرية العقيدة، وعندما حارب الديكتاتورية، كما أرسى قواعد الديمقراطية عندما جعل الشورى والبيعة أو الاختيار هي أساس تولية الحاكم؛ قال تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، وقال تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾. فكان الرسول يشاور أصحابه، وكذلك فعل الصحابة أبو بكر وعمر[٢]. وأقر حرية الجدل والمناظرة عندما أمر رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن يجادل الكفار بالتي هي أحسن؛ قال تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾. وشجع الإسلام على حرية الرأي عندما أباح الرسول صلى الله عليه وسلم الاجتهاد بالرأي في المسائل الفقهية حينما اجتهد الرسول وأمر أصحابه بالاجتهاد في المسائل التي تعرض لهم ويطلب فيها حكم الدين ولا يكون لها نص مباشر من الكتاب أو السُّنَّة؛ فقد اجتهد الرسول في بعض المسائل فأقره الوحي أحيانًا، ولم يقره في أحيان أخرى، وكان

---

(١) ارجع إلى: د/التفتازاني: «مفهوم الحرية في الإسلام» مقال بمجلة التصوف الإسلامي، العدد السابع، ذو الحجة سنة ١٣٩٩هـ.

(٢) د/يوسف محمد عيد: «دروس من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم» المطبعة المحمدية التجارية سنة ١٩٧٩م، وانظر أيضًا: سيد قطب: «في ظلال القرآن» ط١٣، دار الشروق سنة ١٩٧٨م.

يبين له أن الأَوْلى غير ما ذهب إليه. وقد أمر الرسول أهل النظر من أصحابه بالاجتهاد، فإذا لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضوا عليه اجتهادهم، فأحيانًا يقرهم عليه فتكون اجتهاداتهم ثابتة بالسنة، وأحيانًا لا يقرهم على ذلك ويبين لهم، فيكون بيانه صلى الله عليه وسلم هو المعتمد(١).

وقد استن الرسول صلى الله عليه وسلم الاجتهاد ليوضح للمسلمين المعاصرين له ولمن سيأتون بعد ذلك مشروعية الاجتهاد بالرأي، ليلجئوا إليه حينما لا يجدون في كتاب الله وسُنة رسوله دليلًا يدل على الحكم الشرعي.

ويستدل على مشروعية الاجتهاد في الفقه بحديث معاذ بن جبل عندما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ليحكم في أهلها؛ قال: «**كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟**». قال: أقضي بكتاب الله. فقال: «**فإن لم يكن في كتاب الله؟**». قال: فبسُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: «**فإن لم يكن في سنة رسول الله؟**». قال معاذ: قلت: أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ثم قال: «**الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي الله ورسوله**»(٢).

وقد روي عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) محمد الخضري: «أصول الفقه» ص٣٧٠، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

(٢) «شرح الكرماني» طبع البهية سنة ١٣٦٥هـ، ص٢٥، ابن حجر «فتح الباري» ص١٣، طبع الأميرية سنة ١٣٥١هـ، العيني: «عمدة القارئ» ج١١ ص٥٠٠، الأستانة ج١٣٠، شرح القسطلاني طبع الأميرية سنة ١٣٥٥هـ ج١ ص٣٤٣، وأخرجه مسلم في الأحكام، وأبو داود في القضاء، وابن ماجة في الأحكام.

يقول: **«إذا حكم الحكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»**. وهذا الأجر على الاجتهاد بالرأي تشجيعًا منه صلى الله عليه وسلم لفقهاء أمة الإسلام للإقدام على الفتوى[١]، فهو يعلم أن لكل عصر وزمان مسائله الخاصة ومشكلاته المختلفة التي تستوجب أحكامًا شرعية قد لا يكون لها نص مباشر في الكتاب والسُّنَّة حتى يظل الإسلام صالحًا لكل زمان ومكان.

والإسلام في احترامه للحرية الفردية يكفل للأفراد الإنتاج وحرية الملكية الخاصة وحرية التجارة؛ ولكن بشرط أن يكون كل ذلك حلالًا طيبًا خاليًا من الغش والاستغلال والاتجار في أرزاق الناس وعدم الإضرار بصحتهم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«من غشنا فليس منا»**، وقال تعالى: ﴿وأوفوا الكيل وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾، وقال تعالى: ﴿فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾.

والإسلام يحفظ للفرد كرامته وأمنه وحياته وماله وعرضه[٢]؛ فقد نظم الله للإنسان أصول حياته، ليس لحجر عليه ولكن يحدد حركة الفرد ليضمن الحرية للآخرين. فإذا جاء التشريع ليتدخل في عدم اختلاس أو سرقة مال الغير مثلًا، فإن ذلك ليس معناه أنه حجر على حرية المختلس أو السارق؛ ولكنه حجر على حريته وحرية الآخرين من أجله، وفي ذلك إقرار للحق والعدل وحماية حرية

---

(١) د/طه جابر العلوي: «أصول الفقه» ص٥، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

(٢) انظر: Ameer Ali: The Spirit of Islam – London ١٩٢٢

الملكية الفردي، والشيء الذي يقابل بعوضه لا يعتبر بخسًا لأنه لم يقيد حركة شخص بعينه دون الآخرين، وإنما قيد حركة الجميع لحماية الجميع؛ فقيد «س» من الناس لحماية الآخرين منه، ثم قيد حرية الآخرين لحمايته هو، فلا يصيبه منهم أذى في ماله وعرضه ونفسه، فشيء يعوضه شيء آخر(١).

إن تقنيات السماء حينما جاءت لتتدخل في حياة الإنسان، تدخلت في الأمور النظرية التي لا يهتدي فيها العقل إلى شيء؛ لأن هواه يتحكم فيه، أما الأشياء الأخرى التي لا يتحكم فيها الهوى فتترك الإسلام فيها حركة الحياة حرة كالعلم التجريبي، فللإنسان أن يبحث ويجرب ويلاحظ ظواهر الكون كما يشاء، ويخرج من النظريات والقوانين العلمية ما يشاء، وإذا انتهى إلى حقيقة علمية فعليه أن ينتفع بها في ترقية حياته(٢).

وقد دعم الإسلام الحرية حينما جعل السادة والعبيد سواسية لا فرق بينهم عند الله، ولا فرق بين غني وفقير، أو حاكم ومحكوم، أو بين قوي وضعيف، أو رجل وامرأة، فالجميع أمام التشريعات السماوية سواسية؛ قال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خير منهن﴾. ففي الإسلام لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، فلا عنصرية في الإسلام ولا تحزب ولا محاباة

---

(١) محمد متولي الشعراوي: «هذا هو الإسلام» ص٢١، وانظر أيضًا: د/ذكريا إبراهيم «مشكلة الحرية» الطبعة الثالثة، القاهرة سنة ١٩٧٢م.

(٢) انظر: محمد متولي الشعراوي: «هذا هو الإسلام» ص: ١٩، ٢٠.

لأحد على حساب الآخر، وإنما الجميع أمام التشريعات السماوية سواء[١].

وقد كرم الله الإنسان حينما جعله المخلوق الوحيد الذي يعبد الله عن اختيار وحب وليس كرهًا، وكرم الله الإنسان حينما جعله سيد الخلق وسخر كل المخلوقات لخدمته؛ قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾.

ومما لا شك فيه أن هذه الحرية الديمقراطية والمساواة والعدل وعدم التفرقة العنصرية والأمن والأمان وعدم التعصب الذي يتمتع به المواطن المسلم يخلق مناخًا طيبًا وأساسًا راسخًا يقوم عليه الفكر السليم.

ولا أدل على الحرية في الإسلام من أن الله سبحانه وتعالى لا يكلف الإنسان إلا حسب قدرته: ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾.

كذلك فإن التشريعات السماوية تجعل الإنسان أمام عدة اختيارات ينتقي منها ما يناسبه؛ كعتق رقبة، أو صيام شهرين متتاليين، أو إطعام عدد من المساكين و... إلخ.

وقيادة المجتمع الإسلامي كما يصوره القرآن الكريم كانت قيادة دعوة لقيم عليا نحو المستوى الإنساني الرفيع، كما كانت قيادة لسياسة دولة هي دولة

---

(١) سبق «الإسلام» الثورة الفرنسية في إعلائها حقوق الإنسان بنحو اثني عشر قرنًا من الزمان، وسبق ما أعلن في المؤتمرات الدولية المعاصرة بنحو أربعة عشر قرنًا. انظر: د/توفيق الطويل: «الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية».

obeikan.com

المؤمنين بالدعوة للقيم العليا(١).

إن الحرية السياسية والاجتماعية هي التي تمكن الفرد من أن يفعل ما يريد في حدود القانون والتشريع، ومن غير أن يسيء إلى غيره. وأخص الحريات السياسية التي دعا إليها الإسلام حرية الرأي والقول والاعتقاد والملكية، وهي كلها مقيدة بالأحكام الشرعية التي تحفظ نظام المجتمع وحقوق الآخرين وتقر العدل بلا استثناء ولا ظلم ولا محاباة.

٥ـ الدعوة للتخلص من الخرافات والأفكار البالية المتوارثة والانطلاق من القديم:

يدعو الإسلام إلى البدء بالشك المنهجي Methodical Daubt وهي مرحلة أساسية من مراحل التفكير السليم قوامها تمحيص المعاني والأحكام المتوارثة بحيث لا يقبل منها إلا ما ثبت صدقه ويقينه؛ فالقرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة يحضا على أن يبدأ التفكير السليم عن طريق كشف الحقيقة بالشك المنهجي الذي ينتهي بصاحبه إلى اليقين والمعرفة الصحيحة، الذي هو عكس الشك السفسطائي أو الشك لمجرد الشك، وليس بهدف الوصول إلى المعرفة(٢).

هذا الشك المنهجي يكون في الأفكار القديمة والمعتقدات المتوارثة التي

---

(١) د/محمد البهي: «المجتمع الحضاري وتحدياته» ص٥٦، مكتبة وهبة سنة ١٩٧٧م، وانظر أيضًا: ابن الجوزي: «عجائب علوم القرآن» تحقيق د/عبد الفتاح عشاور.

(٢) انظر: د/توفيق الطويل: «أسس الفلسفة» ص٣٠٢، وانظر أيضًا: «ديكارت الجديد» للدكتور يحيى هويدي.

تفتقر إلى دعائم وأدلة عقلية وحسية، وقد أفاض القرآن والسُّنَّة في المطالبة باتباع هذا المنهج، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا. أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون﴾، وقال تعالى: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثرهم مهتدون﴾، وقال تعالى: ﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا﴾، وقال تعالى: ﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا﴾، وقال تعالى: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾، وقال تعالى: ﴿وما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم وما أنزل الله بها من سلطان﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا﴾.

وفي قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه خير دعوة للانفلات من القديم، وترك الأفكار المتوارثة التي في حاجة إلى تمحيص للتأكد من صحتها؛ قال تعالى: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن لأصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رءوسهم

لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾. وفي هذه الآيات يصور الله تعالى إصرار قوم إبراهيم على التقليد الأعمى لما وجدوا عليه الآباء والأجداد، والتمسك بالقديم دون تمحيص أو تدقيق في مدى صحته ونفعه.

وقال تعالى في ذلك أيضًا: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾.

من هذه الآيات السابقة يتضح جليًّا كيف أن الله سبحانه وتعالى دعانا إلى عدم التقليد الأعمى والابتعاد عن الخرافات، وعدم التسليم بما وجد عليه الأجداد والآباء من أفكار ومعتقدات دون شك في مدى صدقها والتأكد من صحتها لمعرفة الحق من الباطل والغث من الثمين، وتلك سمة من أهم سمات التفكير السليم، وخطوة رئيسية في طريق الوصول إلى الحقيقة[1].

٦- تنحية الذات وطرح الهوى وإقصاء الخبرة الذاتية والالتزام بالموضوعية Objectivity

عند الحكم على الأشياء يجب الالتزام بالنزاهة Disinterestedness والحياد التام للوصول إلى الحقيقة المجردة على ما هي عليه. وقد حرص القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة على أن يتحلى من يريد أن يصل إلى الحق والحقيقة بهذه

(١) لمعرفة المزيد عن الشك المنهجي ارجع إلى: د/عمشان أمين «ديكارت»، د/يحيى هويدي «ديكارت الجديد» القاهرة ١٩٦٥م.

السمة الهامة، والتي تكفل نتائج صادقة لا يشوبها نزعات فردية أو أهواء شخصية، وإنما نتائج موضوعية صادقة.

قال تعالى في وجوب طرح الهوى عند الحكم على الأشياء: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه﴾، وقال تعالى واصفًا الذين يدخلون أهواءهم الشخصية في الحكم على الأشياء بغير علم بأنهم ظالمون بعيدون عن النزاهة والعدالة: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾. كما وصفهم سبحانه بالضلال في قوله تعالى: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾. فقد ضلوا منهج الطريق السوي ومنهج التفكير والصراط المستقيم. وقال تعالى: ﴿واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله﴾، وقال تعالى: ﴿إن كثيرًا يضلون بأهوائهم بغير علم﴾.

وفي ضرورة الالتزام بالنزاهة في الحكم على الأشياء؛ قال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾.

وفي ذم من يستعلي على طلب الحقيقة ويمنعه كبرياؤه من البحث عنها لمخالفتها لهوى نفسه أو لرأيه الشخصي، فيظل على إصراره في اتباع الباطل رغم وضوح الحق؛ قال تعالى: ﴿يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا علم من آياتنا شيئًا اتخذها هزوًا أولئك لهم عذاب مهين﴾، وقال تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾، وقال تعالى: ﴿وما تأتيهم آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا﴾.

هذه أمثلة وليست حصرًا لآيات من القرآن الكريم توضح كيف أن الله تعالى يحث الناس على ترك هوى النفس في البحث عن الحقيقة، ويبصرهم بضرورة الالتزام بالنزاهة وعدم تجاهل الحق إذا ما ظهر جليًّا حتى يمكن الوصول إلى نتائج موضوعية، وحض سبحانه أيضًا على عدم التعالي على من جاء بالحق ونطق به أيًّا كان شأنه. وتلك خاصية من أهم خصائص التفكير السليم(١).

٧- الحث على طلب الحقيقة الواضحة المتميزة Distict وإظهارها وإبطال الباطل:

حتى لا تختلط الحقيقة بغيرها من الأفكار، ولكي تكون أكثر تحديدًا لمن ينظر فيها -ينبغي أن يدرك مضمونها وعناصرها إدراكًا بينًا بحيث لا تقبل الشك، ويكون طلب الحقيقة لذاتها دون غرض آخر، وقد تضمن القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الشريفة هذه الخاصية للتفكير السليم، ويبدو ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾، وقال تعالى: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾، وقال تعالى: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا﴾، وقال تعالى: ﴿ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا﴾.

ويحب الله سبحانه وتعالى أن يظهر الحق ويغلبه على الباطل؛ قال تعالى:

---

(١) انظر: د/ توفيق الطويل «في تراثنا العربي الإسلامي» ص٢٠٥.

﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾. ويحذر الله تعالى من محاولة إلباس الباطل ثوب الحق، وينهى عن كتمان الحق وطمسه محاولة كتمانه وإخفائه؛ قال تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾، وقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾.

والحق اسم من أسماء الله تعالى، وقد أنزل الله كتابه بالحق قامت حجته على العدل والحق، وحارب الباطل والكذب وحرمهما، وقد حذر رسوله من اتباع أهواء أهل الباطل، وأمره أن يلتزم بالحق؛ قال تعالى: ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾، وقال تعالى: ﴿حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق﴾.

ويوضح الله تعالى أن من لا يسير على الحق ويظهره فليس أمامه إلا أن يتبع الباطل فلا ثالث بين الحق والباطل؛ قال تعالى: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون﴾.

والحق الذي يطلبه الله تعالى هو الذي يتميز بالوضوح البعيد عن الظن أو الشك الذي لا يغني عن الحق في شيء؛ قال تعالى: ﴿إن الظن لا يغني عن الحق شيئًا﴾.

ويؤكد الله تعالى على أنه ليس أظلم ممن يرى الحق بينًا، ثم يكذب به ويرى الحقيقة واضحة متميزة ويتجاهلها ويتغافل عنها؛ قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بالحق لما جاءه﴾.

ويعتبر الاهتمام بصدق القول أو صدق القضايا معبرًا أمينًا للوصول إلى الحقيقة، وكما جعل الإسلام التزام الصدق في الأقوال والأفعال، وتجنب

الكذب والظن بغير أساس من أهم السمات التي يتسم بها الإنسان الباحث عن الحقيقة، فإنه طالب بتحري صحة أقوال الآخرين والتأكد من صدقها قبل التسليم بها والتصرف على هذا الأساس؛ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾.

وقد دعا الله الذين آمنوا أن يكونوا من الصادقين؛ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾.

وقد وعد الله الصادقين والباحثين عن الحق والمناصرين له بأحسن الجزاء؛ قال تعالى: ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم﴾، وقال تعالى: ﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾. فإذا توفرت الأدلة وتأثرت نفس المصدق بها كان العلم أشد رسوخًا في نفسه وأعمق أثرًا في قلبه، فالإيمان بصدق قضية يقوى بالبرهان ويرتفع بصاحبه إلى درجة الاطمئنان[1].

(١) ارجع إلى: محمد بهاء سليم «القرآن الكريم والسلوك الإنساني» ص١١١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

٨- اليقظة العقلية وعدم الغفلة والنشاط الروحي والفاعلية Activesm:

وهو ما يطلق على كل عملية عقلية أو بيولوجية متوقفة على استخدام طاقة الكائن الحي وتمتاز بالتلقائية(١).

وقد حث القرآن والسُّنَّة على اليقظة وعدم الغفلة، ويتضح ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم أولئك هم الغافلون لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾، وقال تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة﴾.

ووصف الله تعالى الغافلين بأنهم كالأنعام؛ بل أضل منها في قوله تعالى: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾.

ويأمر الله عباده بعدم الغفلة، ويدعوهم إلى اليقظة العقلية في مثل قوله تعالى: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾. ويشير الله تعالى إلى أن كثرة من الناس لا تتمتع باليقظة العقلية ويحيون في غفلة؛ قال تعالى: ﴿وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا غافلون﴾.

وقد تكون الغفلة عقلية أو قلبية، وقد تكون غفلة حسية ناتجة عن ضعف الملاحظة؛ قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعوهم

---

(١) «المعجم الفلسفي» تقديم د/إبراهيم مدكور، ص٢٠١، وانظر أيضًا: ألبرت أشفيتر: «فلسفة الحضارة» ترجمه عن الألمانية د/عبد الرحمن بدوي، ص٢٣.

إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدًا﴾.

وقد جعل الله الإسلام العقل اليقظ المستنير حكمًا في الدين، والعقل السليم لا يتعارض مع الإيمان؛ قال تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذين ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾.

ويفسر الشيخ «محمد عبده» هذه الآية بقوله: «إن الآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وإن المرء لا يكون مؤمنًا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به، فمن رُبي على التسليم بغير عقل والعمل ولو صالحًا بغير فقه فهو يعتبر غير مؤمن؛ إذ ليس القصد من الإيمان أن يُذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقي عقله وترتقي نفسه بالعلم، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله، ويترك الشر لأنه يعلم سوء عاقبته ودرجة مضرته[1].

وقد جمع الإسلام بين الدعوة إلى القيم الأخلاقية العليا والمبادئ الإنسانية السامية، في الوقت الذي بنى فيه الإيمان الديني على اليقظة العقلية والنظر العقلي والتنبه وعدم الغفلة.

٩- التسليم بوجود سنن أو قوانين كونية ثابتة مع عدم الربط الضروري والحتمي بين الأسباب والمسببات:

يؤكد الإسلام أن هناك سنن كونية تجري بمقتضاها الأمور، أو قوانين تحكم العالم، وأن هذه السنن ثابتة أو هذه الكيفية التي أوجد الله العالم عليها لا

(١) د/توفيق الطويل: «الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية» ص٨٩.

تتغير ولا تتبدل إلا إذا شاء الله ذلك، فقد جعل الله الكون بما فيه من موجودات حية وغير حية على أنظمة محددة ومقننة ومقدرة تقديرًا كميًّا وكيفيًّا.

ومن الآيات التي توضح أن سنة الله في خلقه ثابتة لا تتغير قوله تعالى: ﴿ولا تجد لسنتنا تحويلًا﴾، وقال تعالى: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلًا﴾. وسنة الله أي عادته في خلقه، أو النظام الذي أوجد عليه مخلوقاته[1].

هذا النظام العالم موجود في كل جزئية من جزئيات الكون في جميع الكائنات والموجودات بشكل ثابت بحيث إذا حدث أي اختلال في هذا النظام، فيكون هذا الاختلال سببًا في فناء هذا الكائن. وعلى سبيل المثال إذا حدث خلل في عدد ضربات قلب الإنسان زيادة أو نقصًا، أو ضغط دمه هبوطًا أو ارتفاعًا، فإن في ذلك خطورة على حياته، وكلما زادت نسبة الخلل في النظام الذي أوجده الله كلما تعرضت حياته للخطر بشكل أوضح مما قد يؤدي إلى فنائه، هكذا الحال في كل شيء، وهذا مثل بسيط على السنن الكونية التي فطر الله عليها مخلوقاته المختلفة. وليس هذه السنن تقتصر على الأمور المادية، وإنما تمتد لتشمل الأمور الأخلاقية والمعنوية، ولولا هذا النظام الثابت لعجز العلم عن سن القوانين العلمية التي تحكم المادة، ولهذا ارتبط البحث في المعرفة الإنسانية قديمًا بالبحث في العلل والأسباب، كما ارتبط البحث في العلم وظواهره قديمًا بالبحث في الأسباب أيضًا. ولعل ذلك كان واضحًا في طريقة البرهنة على تعميمات العلم عند أرسطو، فلو أردنا مثلًا على كل حديد يتمدد بالحرارة بالطريقة القياسية الأرسطية، فإننا نقول: إن السبب في تمدد الحديد

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ص٤، ص١٩٤، الناشر الدار المصرية اللبنانية.

بالحرارة هي كونه معدنًا، وإن كل المعادن تتمدد بالحرارة. وهكذا فالبرهان على تعميمات العلم عند أرسطو كانت عن طريق معرفة الأسباب التي هي عنده الحدود الوسطى في القياس. كما أقام كل من فرنسيس بيكون وجون استيورد مل منهجهما العلمي على فكرة العلية أو السببية، فجعلا التعميمات العلمية وكذا القوانين العلمية قائمة على فكرة السببية(١).

وقد واجهت فكرة السببية نقد الباحثين والعلماء مع تقدم العلم، وأحلوا محلها فكرة القانون العلمي الذي يجيب على سؤال يبدأ بـ«كيف» «How» بدلًا من السؤال التقليدي الذي كان يبدأ بـ«لماذا» «Why». ولم تعد فكرة السببية - وخاصة معنى الضرورة فيها- تروق للمعاصرين من المفكرين مثل «رسل» الذي ذهب إلى أن كلمة سبب «Cause» لا ترد أبدًا في الفيزياء(٢) الذي لم تعد تبحث في الأسباب أو العلل أبدًا، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد حدثنا عن السنن التي خلقها في الكون، والتي تتصف بالثبات والاستقرار والتي إذا تحولت أو تغيرت فني الشيء أو فسد، فإنه سبحانه قادر على أن يخرق هذه السنن أو القوانين إذا شاء ذلك؛ قال تعالى في سيدنا إبراهيم: ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين﴾.

يقول «ابن كثير» في تفسير هذه الآيات: «جمع الكفار الحطب الكثير، ثم

---

(١) د/عزمي إسلام «لغة العلوم الفيزيائية والرياضية» ص٢١٥، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٧م. وانظر أيضًا: Russel, B. Mysticiam and logic p. ١٨٠.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

جعلوه في حومة من الأرض وأضرموها نارًا، فكان لها شرر ولهب عظيم مرتفع، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد اسمه هزان، وألقى إبراهيم في النار بعد أن ربطوه بالحبال فلم تحرق النار إلا وثاقه بعد أن أمرها الله أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم؛ فلم تضره وأصبح ولم يصبه منها شيء»[١]. وهكذا أبطل الله هذه السُّنَّة الكونية وسلب النار خاصية الإحراق.

ومن أمثلة ذلك أيضًا قوله تعالى عن سيدنا زكريا عليه السلام: ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرًا وقد بلغت من الكبر عتيًّا قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا﴾.

وفي هذه الآيات يتعجب زكريا عليه السلام حينما بشره ربه بالولد، ففرح فرحًا شديدًا وسأل عن كيفية ما يولد له والوجه الذي يأتيه منه الولد؛ مع أن امرأته كانت عاقرًا لم تلد من أول عمرها ومع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا؛ يعني نحل عظمه ولم يبق لقاح ولا جماع؛ غير أن الله تعالى أجابه: ﴿كذلك قال ربك هو علي هين﴾ أي: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها «هين» أي: يسير وسهل على الله. ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال: ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا﴾[٢].

ولا عجب أن يخرق الله السنن والقوانين التي جعل الكون وما فيه عليها، فهو سبحانه فعال لما يريد، وإذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، فإرادته هي

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص١٧٩.

(٢) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص١١١٠.

التي جعلت تلك القوانين لا تتغير ولا تتبدل إلا بإذن الله الذي خلقها، والذي يتحكم فيها ويسيرها، ومعجزات الأنبياء والرسل ما هي إلا خرقًا للقوانين والسنن الكونية، وقد جعلها الله دليلًا على صدق دعواهم لمخالفتها لطبيعة الأشياء، وهذا استثناء؛ أما القاعدة المألوفة هي أن في الكون نوع من النظام، وهذا النظام على درجة عالية من الثبات، وهذا فضل من الله حتى يتمكن العلماء من سن القوانين العلمية التي يجب أن تتمتع بقدر كبير من الثبات، مع إعطاء الفرصة للتقدم العلمي والتطور الذي لا حدود له. ومن هنا حلت فكرة الاحتمالات محل فكرة الضرورة في القوانين؛ قال تعالى: ﴿وقل رب زدني علمًا﴾، وقال تعالى: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾.

وفي رأي أن الذي يؤدي إلى عدم ثبات قوانين العلم ودوام تطورها، هو أنها لم تصل إلى الحقيقة الكاملة، فإذا وضع العلم يده على الحقيقة الكونية كاملة، فإنها تصير ثابتة لا تتغير، فالعلماء يجتهدون في بحثهم عن السنن الكونية ومعرفة طبيعة الأشياء على حقيقتها، فإذا تم لهم ذلك صار القانون ثابتًا لأنه أصبح صادقًا وعلى درجة عالية من اليقين؛ لأنه يصف ما هو كائن بالفعل وصفًا دقيقًا معبرًا عن الحقيقة الواقعة كاملة، وليس جزءًا من الحقيقة؛ مثال ذلك أن العلم قد أثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن الأرض كروية، وأنها منبعجة من الأطراف، وأنها تدور حول نفسها وتدور حول الشمس، وقد تأكدت هذه الحقيقة بعد أن ارتاد العلماء الفضاء ورأوا الأرض على هذا النحو فوقفوا على حقيقة شكلها ودورانها بما لا يدع مجالًا للشك أو الاحتمال، وأصبحت هذه حقيقة علمية مطلقة وسُنة كونية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل.

فالسنن الكونية ثابتة، والذي يتغير هو القوانين التي تحاول الوقوف على

حقيقة هذه السنن، فإذا ما نجح العلم في معرفة الحقيقة كاملة فإنها تصير قانونًا ثابتًا.

١٠- الاعتماد على الحجج المنطقية والبراهين العقلية والمشاهدة الحسية للدلالة على صدق قضية ما:

للدقة في جمع الأدلة وعدم التسرع في الوصول إلى القرارات أو القفز إلى النتائج والأحكام دون أدلة وبراهين Demonstations اعتمد القرآن الكريم على الحجج المنطقية والأدلة العقلية حينما اهتم بتقديم الآيات الدالة على صدق القضايا الإيمانية والعقائدية، فقد فطر الله الإنسان على طلب الحجة والتمسك بالبراهين والأدلة العقلية والحسية حتى يؤمن بصدق الأحكام أو القضايا، ويتأكد من صدقها وتتبدد شكوكه، فقد جعله الله أكثر المخلوقات جدلًا، ولذلك أيد الله تعالى رسله وأنبياءه بالمعجزات الدالة على صدقهم وصحة ما يدعون إليه، وقد حرص سبحانه على أن تحمل آيات القرآن الكريم الدلالات العقلية والحسية حتى لا يكون للناس حجة.

قال تعالى: ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا﴾، وقال تعالى: ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾، وقال تعالى: ﴿قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورًا مبينًا﴾، وقال تعالى: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم البينة من ربكم﴾، وقال تعالى: ﴿كذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾.

ويحذر الله تعالى من يدعي قولًا دون أن يقدم البرهان والحجة على صدقه؛ قال تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إلهًا آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه﴾،

وقال تعالى: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.

ومن الآيات الكريمة التي تحمل الدليل الحسي أو المادي الذي يؤيد صدق القول ما جاء في سورة المائدة على سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى ابن مريم اللّٰهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين﴾.

من الآيات السباقة يتضح كيف أن الله سبحانه وتعالى اهتم اهتمامًا عظيمًا بتقديم الدليل الحسي إلى جانب الدليل العقلي؛ حتى يطمئن الناس ويقتنعوا ويؤمنوا بعد أن تتضح لهم البينة ويقدم لهم الدليل.

وكما اهتم الله سبحانه بتقديم الدليل الحسي والعقلي، فإنه سبحانه يطالب بتقديم الدليل على صدق ادعاءات الكافرين، فيأمر رسوله بأن يطلب منهم البرهنة على صدق أقوالهم لو كانوا صادقين.

وينبع اهتمام الإسلام بتقديم الحجج والبراهين العقلية والحسية من طبيعة المنهج الإسلامي الذي يهتم بتوضيح الأمور جلية؛ ليكون الناس على بينة من أمرهم، وذلك لغرضين أساسيين هما:

الأول: أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يشبع حب الإنسان الفطري في طلب الدليل والبرهان على صدق الشيء قبل أن يسلم بصدقه ويؤمن بصحته؛

قال تعالى: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلًا﴾. وهذا احترام من الله لعقلية الإنسان التي فطرها سبحانه وتعالى على ألا تسلم بفكرة إلا إذا قام الدليل على صدقها.

والثاني: حتى لا يكون للناس على الله حجة، فمن يؤمن يكون على بينة، ومن يكفر يكون الله قد قدم له كل سبيل للتدليل على صدق القضايا الإيمانية وصحة العقيدة، وبذلك يضعه الله تعالى في موضع المسئولية تجاه كفره وأعماله السيئة؛ قال تعالى: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾، وقال تعالى: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

أما عن أنواع البراهين والاستدلالات التي وردت بالقرآن الكريم فهذا ما سيأتي بيانه في الفصل الثاني.

١١ـ الدعوة إلى الشمول والتكامل:

يتسم الفكر الإسلامي بالشمول والتكامل والعمومية، ولا أدل على ذلك من أنه دين للناس كافة؛ قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا﴾. وتتمثل عمومية الإسلام وشموليته وتكامله في عدة جوانب نذكر منها:

أ- شمولية وتكامل المعرفة في الإسلام: فالإسلام يدعو إلى معرفة متكاملة يتآزر فيها الحس والعقل والقلب والخبر المنزل، وهي وسائل المعرفة الخاصة بعالم الشهادة وعالم الغيب معًا. ولا يعول على الحسي فقط كمصدر للمعرفة كما فعل الحسيون، أو الفعل وحده كما فعل العقليون، وإنما جمع بين مصادر المعرفة

المتعددة من حس وعقل وقلب وخبر منزل[١].

ب- وتتضح شمولية وتكامل الإسلام في ربطه بين الإلمام النظري بأصول العقيدة والشريعة من عبادات ومعاملات، ثم التطبيق العملي لتلك المعرفة، فلا تكفي المعرفة وحدها دون تطبيقها عمليًّا، ولا يكتمل العمل ويكون صحيحًا إلا بالمعرفة النظرية للتشريعات حتى لا يكون العمل أو التعبد عن جهل. وهكذا ربط الإسلام بين النظر والعمل، فكلاهما مكمل للآخر، فالإسلام الصحيح يبنى على علم بالشريعة وعمل بها، ولا يصح أحد الشقين بدون الآخر. ومن الآيات الدالة على ربط الإسلام بين العلم والعمل؛ قوله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾. ويتضح من هذه الآية الكريمة كيف أن الله تعالى يربط بين العلم الذي يرفع درجات المؤمنين عند ربهم، ويجعلهم في أعلى الدرجات لمكانتهم العلمية، وهو سبحانه خبير بما يعمل هؤلاء العلماء، فإن عملوا خيرًا بعلمهم كمل عملهم وصاروا في أعظم الدرجات[٢].

كذلك السُّنَّة المطهرة ربطت بين العلم والعمل من ذلك على سبيل المثال لا الحصر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المنافق يَعْلَمُ القرآن ولا يَعْمل**

(١) لمعرفة المزيد عن تكامل المعرفة في الإسلام ارجع إلى: د/كوكب عامر «معرفة الله والطريق إليها» بحث نشر في كلية البنات العدد ١٣ سنة ١٩٨٨م.

(٢) ارجع إلى: د/فوقية حسين محمود «مدخل إلى الفلسفة الإسلامية».

به»[١]. وقال ابن مسعود: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»[٢]. وقال عبد الرحمن السلمي: «كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها، فتعلمنا القرآن والعمل معًا»[٣].

وقال صلى الله عليه وسلم في الربط بين العلم أو الإيمان النظري والعمل: **«الإيمان والعمل أخوان شريكان لا يقبل الله أحدهما إلا بصاحب»**[٤].

ج- وتتضح شمولية الإسلام وتكامله في ربطه بين عمل الإنسان في الحياة الدنيا وبين الجزاء في الآخرة[٥]: فإذا حسنت أعماله في الدنيا نال ثواب الآخرة وتنعم في الجنة، والعكس صحيح؛ فمن أكثر من الأعمال السيئة وكفر بربه له عقاب الآخرة. وبذلك كانت الرابطة وثيقة بين الدين والدنيا في الإسلام وبين الدنيا والآخرة. ومن الآيات الدالة على اهتمام الإسلام بالحياة الدنيا والآخرة معًا قوله تعالى: ﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليمًا﴾.

---

(١) عماد الدين علي المتقي بن حسام: «كنز العمال في الأقوال والأفعال» ج١ ص٣٦. (المرجع السابق نفس الصفحة).

(٢) انظر: علاء الدين علي المتقي: «كنز العمال في الأقوال والأفعال» ج١ ص٣٦٧، وانظر أيضًا: تفسير ابن كثير ج١ ص٣.

(٣) المرجع السابق: ج١ ص٤٧١، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية.

(٤) لمعرفة المزيد عن علاقة العلم والعمل في الإسلام ارجع إلى: د/سهير فضل الله أبو وافية: «فلسفة العمل في الإسلام» وانظر أيضًا: ابن تيمية «مقدمة في أصول التفسير» ص٦.

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة وما بعدها.

في هذه الآية الكريمة يذم الله الذين لا يجمعون بين الاهتمام بالحياة الدنيا والآخرة في نفس الوقت، فأي شيء يضيرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق المستقيم الذي رسمه الله لهم وآمنوا باليوم الآخر، وأنفقوا في حياتهم الدنيا مما رزقهم الله في وجوه الخير التي يحبها الله لينالوا ثواب الآخرة، والله عليم بهم وبما يعملون، ومن يعص الله فقد خسر الدنيا والآخرة[١].

وقال تعالى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾، وقال تعالى: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾.

د- وتظهر شمولية وتكامل الإسلام في ربطه بين القول والفعل: فلا يجوز أن يقول الإنسان ما لا يفعل؛ بل عليه أن يلتزم عمليًّا بما يقول؛ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إن الله لا يرضى فعل عبد حتى يرضى قوله»**[٢]، وقال صلى الله عليه وسلم: **«تمثل القرآن يوم القيامة رجلًا فيؤتى بالرجل قد حمله فما نفذ أمره (أي ما عمل بما فيه) فيتمثل له خصمًا فيقول: يا رب حملته إياي فبئس حاملي، تعدى حدودي، وضيع فرائضي، وركب معصيتي، وترك طاعتي، فما يزال يقف عليه بالحجج حتى منخره في النار، ويُؤتى بالرجل الصالح قد كان حمله وحفظ أمره فيتمثل له خصمًا دونه فيقول: يا رب حملته إياي فحفظ حدودي، وعمل بفرائضي، واجتنب معصيتي، واتبع طاعتي، فما يزال يقذف له بالحجج حتى يقال له شأنك به، فما يرسله حتى يلبسه**

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج١ ص٤٧١، الطبعة الأولى الدار المصرية اللبنانية للنشر.

(٢) عماد الدين المتقي بن حسام: «كنز العمال في الأقوال والأفعال» ج١ ص٨٦.

حلة الإستبرق ويقعد عليه تاج الملك ويسقيه كأس الخمر»[1]. والخمر في الجنة شراب لذيذ ليس له مضاعفات ومضار الخمر المعروف في الدنيا.

هـ- كذلك تتضح شمولية الفكر الإسلامي وتكامله من اهتمامه بالحياة المادية إلى جانب الحياة الروحية معًا، إلى جانب الناحية العقلية التي سبق الحديث عنها: فالإنسان جسم وعقل ونفس، وهذا الشمول والتكامل بين تلك النواحي يبدو واضحًا في العبادات والمعاملات. فالعبادات التي يؤديها المؤمن، من صلاة وصوم وحج وزكاة وغيرها هي الممارسات العملية للعبادات يشترك فيها الجسم مع الروح والعقل، فعلى المصلي مثلًا أن يقوم بحركات بدنية من سجود وركوع وجلوس للتشهد، ويتلو القرآن، وهو في كل هذا لا بد أن يكون مع الله بعقله وروحه، ولا يؤدي صلاته وهو غافل عن الله، فهي ليست مجرد حركات بدنية يؤديها، وعليه أيضًا أن يعرف مغزى هذه العبادة والهدف منها، فلكل عبادة جوانبها التي يجب على المؤدي لها أن يأخذها في حسبانه، فهي تنير العقل وترقق القلب وتهذب السلوك وتسمو بالنفس والأخلاق، وإلا أصبحت العبادات عملًا خاليًا من المعنى لا جدوى منه؛ قال تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾. كما أنه ليس للمسلم من صلاته إلا ما يعقله؛ بمعنى أن صلاة المسلم لا تحسب له ولا تكون صحيحة إلا إذا عقل ما يقول فيها وما يفعل. ولا ريب أن الدعوة إلى الشمول والتكامل التي اتسم بها الفكر الإسلامي من أهم سمات الفكر السليم.

---

(١) المرجع السابق من نفس الصفحة.

١٢ـ تحريم الكهانة والسحر والشعوذة واستبعادها في معالجة الأمور:

من سمات التفكير السليم ألا يقوم على الأفكار الخرافية، أو يعتمد على الشعوذة أو الكهانة، واستخدام السحر والتنجيم وقراءة الطالع وغيرها من الأمور المشابهة، وقد حارب الإسلام الكهانة والشعوذة والسحر، وحرم استخدامها حتى لا يبني الناس أفكارهم واعتقاداتهم على الأوهام والخرافات المضللة.

ومن أمثلة الآيات القرآنية التي تحارب السحر قوله تعالى: ﴿أسحر هذا ولا يفلح الساحرون﴾، وقال تعالى: ﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر﴾. وفي هذه الآية الأخيرة السحر يوازي الخطيئة، وقال تعالى: ﴿إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾، وقال تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾. ويؤكد الله سبحانه وتعالى أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس بساحر وليس بكاهن؛ لأن الكهنة والسحرة لا يصدقون، بينما هو صادق في تبليغه عن ربه. قال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿ولا بقول كاهن[1] قليلًا ما تذكرون﴾. وقال تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾.

وقد أجمع الفقهاء على تحريم السحر والكهانة والعرافة استنادًا إلى ما جاء في الكتاب والسنة. وقد روى مسلم والإمام أحمد، عن صفية بنت أبي عبيد، عن

---

(١) الكاهن هو من يأتيه جني يخبره ببعض المغيبات. أحمد محمد فريد فهمي: «المصحف المفسر» ص٧٦٤.

بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم يقبل له صلاة أربعين ليلة»**[١].

وروي عن الإمام أحمد في مسنده، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد»**[٢].

وتلك أمثلة على تحريم القرآن والسُّنَّة اللجوء إلى التفكير الخرافي والشعوذة والسحر والكهانة، وما شاكلها من أمور بعيدة كل البعد عن التفكير السليم، وتلك سمة من أهم سمات الفكر الصحيح.

١٣ـ الصبر والمثابرة من أجل الوصول إلى الحقيقة:

إنَّ عدم التسرع في استنباط الأحكام يمكن من بذل الجهد بإرادة قوية والتسامح وسعة الصدر، ويدعو الله سبحانه وتعالى عباده المخلصين إلى التحلي بالصبر في بحثهم عن الحقيقة، وبأمرهم بعدم التسرع في استنباط الأحكام وإصدارها، ويحثهم على سعة الصدر والتسامح، وبذلك الجهد حتى لا يقعوا في الخطأ وبجانبهم الصواب. ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل﴾، وقال تعالى: ﴿قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن أهدى﴾، وقال تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾، وقال تعالى

---

(١) علي بن محمد بن أبي العز: «شرح الطحاوية في العقيدة السلفية» ص٣٤١.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

يحث المؤمنين على الصبر: ﴿فاصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله﴾.

وحكى سبحانه وتعالى عن نبيه موسى عليه السلام عندما التقى بالخضر وهو من العارفين بالله: ﴿قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدًا قال إنك لن تستطيع معي صبرًا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرًا قال ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا﴾، وقال تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إنه لقول فصل وما هو بالهزل إنهم يكيدون كيدًا وأكيد كيدًا فمهل الكافرين أمهلهم رويدًا﴾.

ولا ريب أن الصبر والمثابرة وعدم التسرع في إصدار الأحكام والتروي في الوصول إلى الحقائق يعد من أهم سمات التفكير العلمي السليم، خاصة وأن علماء النفس يذهبون إلى أن الإنسان كثيرًا ما يضطر إلى البت في الأمر قبل استعراض جميع النواحي خوفًا من فوات الفرصة، ويبدو ذلك واضحًا عندما تكون الظروف والعوامل المحيطة تقتضي الاختيار السريع مما يجعله يقفز إلى النتائج قفزًا، وهذا يعرضه للوقوع في الأخطاء[١]، أو قد يعتمد المرء على ذكائه وقوة فراسته مما يجعله يتسرع في استخلاص الأحكام[٢].

---

(١) د/يوسف مراد: «مبادئ علم النفس العام» ط٤، ص٣٧٥.

(٢) Yaussef Mourad: la physicgnomonie ararb et kitabl al – firasa de Fakhr al – Din A –Razi. Paris; ١٩٣٩.

openkan.com

١٤ـ الجدل والمحاورة بالحسنى مع احترام الرأي الآخر:

الدعوة إلى الحق والموعظة الحسنة من تعاليم الإسلام قرآن كانت أو سُنة، فهو يدعو إلى التزام آداب الحوار والمجادلة بالحسنة مع الخصم ومحاولة استمالته وإقناعه بالحجج المنطقية باستخدام الألفاظ المهذبة.

قال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾، وقال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾، وقال تعالى لسيدنا موسى وأخيه هارون عليهما السلام: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولًا لينًا لعله يتذكر أو يخشى﴾، وقال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾، وقال تعالى يوصي الرسول في مجادلته لأهل الكتاب: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا﴾، وقال تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾، وقال تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أيضًا: ﴿ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾.

١٥ـ التزام الأمانة في الأقوال والأفعال وفي جميع التصرفات:

جاء في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الشريفة أن الالتزام بالأمانة ومراعاتها في القول والفعل واجب أساسي مكلف به كل مسلم ومسلمة، وهذه السمة من السمات الأساسية التي لا بد من توافرها في كل مفكر، فإذا كان المفكر أمينًا صدق قوله وصحت نتائجه، ووصل إلى حقائق موضوعية منزهة عن كل غرض.

ومن أمثلة الآيات القرآنية التي تحض على الالتزام بالأمانة قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾، وقال تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾، وقال تعالى مخاطبًا المؤمنين يأمرهم بأداء الأمانة: ﴿فإن أمن بعضكم بعضًا فليؤد الذي أؤتمن أمانته﴾، وقال تعالى أيضًا: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾.

ويلوم سبحانه وتعالى من يحرفون الحقائق ويزيفون الوقائع في مثل قوله تعالى: ﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾، وقال تعالى أيضًا: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾، وقال تعالى: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾، وقال تعالى محذرًا من يكتم الحق ولا يشهد به ويظهره: ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾.

ويأمر الله سبحانه وتعالى القائمين على العدل والحكم أن يكونوا عادلين مقسطين حتى ولو كان عدلهم ضد مصلحة أقرب الناس إليهم أو هم أنفسهم في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾. وتعتبر الأمانة والصدق في الأقوال والأفعال خاصية من أهم خصائص التفكير السليم.

١٦ـ استخدام الخيال في فرض الفروض ومحاولة التحقق من صدقها عن طريق النظر العقلي المقترن بالمشاهد الحسية:

من سمات التفكير السليم أن يستخدم المفكر خياله في وضع عدة فروض لتفسير ما غمض عليه من الظواهر الكونية، ثم يبدأ في التحقق من صدقها عن طريق المشاهدة الحسية والنظر العقلي المتعمق، فيستبعد ما يثبت خطؤه ويبقى على ما يثبت صحته. وقد جاء في القرآن الكريم دعوة صريحة من الله تعالى لاستخدام الخيال في فرض الفروض والتأكد من صحتها للوصول إلى الحقيقة بعد استبعاد غير الصحيح منها، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكبًا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغًا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾.

في هذه الآيات الكريمة يصور الله تعالى حال إبراهيم عليه السلام بعد أن تيقن أن ما يعبده قومه من الأصنام ليس هو الإله الحق، فطاف ببصره في السماء باحثًا عن الله فرأى كوكبًا مضيئًا، فافترض أن هذا الكوكب ربه. غير أنه ما لبث أن اختفى وهو يعلم بفطرته أن الله لا بد أن يكون موجودًا دائمًا، ولا يأفل أبدًا فتأكد له أن هذا الفرض غير صحيح. ونظر ثانية إلى السماء فرأى القمر بازغًا فافترض أنه ربه، وكان أكبر حجمًا وأزهى ضوءًا من سابق إلا أنه ما لبث أن اختفى وهو يعلم بفطرته أن الله لا بد أن يكون موجودًا دائمًا، ولا يأفل أبدًا

فتأكد له أن هذا الفرض غير صحيح فاستبعده. فلما رأى الشمس بازغة افترض أن تكون ربه، وقد كانت أكبر حجمًا وأقوى نورًا، غير أنها غربت وغابت عنه فتأكد من فساد فرضه بأنه إله. وهكذا ثبت له بالمشاهدة الحسية والنظر العقلي أن الأصنام العاجزة ليست بآلهة، وأن الكواكب والقمر والشمس ليست بآلهة كذلك لأنها تأفل، والله يجب أن يكون حاضرًا دومًا فقال: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾ أي: أخلصت ديني وأفردت عبادتي للذي خلق السماوات والأرض وابتدعهما على غير مثال سابق «حنيفًا» أي في حال كوني حنيفًا؛ أي مائلًا عن الشرك إلى التوحيد(١).

وهكذا نستطيع أن نستنتج من كل ما سبق من أسانيد من القرآن والسُّنَّة أن الإسلام يدعو البشرية إلى الالتزام بسمات التفكير السليم، والبعد عن التقليد الأعمى والخرافات، والبحث عن الحقيقة بصبر ومثابرة، وعدم التسليم بشيء إلا إذا أثبتت الحجج والأدلة العقلية والحسية صدقه، وذلك للوصول إلى الحقائق الموضوعية، كما أن الإسلام قد وضع مناهج للبحث والفكر يلتزم بها من ينشد الحقيقة المجردة، وهذا هو موضوع الفصل الثاني الذي سنتبين فيه معًا المنهج في القرآن والسُّنة.

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٢ ص١٥٢.